

إذا كان العنف ظاهرة لصيقة بالصرع، وهو في الغالب أحد مخرجاتها أو أبعادها فإنه نوعان: الأول - العنف المباشر، مثل القتل، والتعذيب، والإيذاء الجسدي، والحصار والعقوبات الاقتصادية وغيرها والثاني - العنف غير المباشر، وقد يكون هذا نوعاً مثل التمييز في النوع الاجتماعي (الجندر)، في التعليم، لأسباب تتعلق بالدين والطائفة أو العرق أو القومية أو اللغة أو اللون أو الأصل الاجتماعي.

والعنف يكون أيضاً بواسطة الاستغلال، لاسيما باستمرار التفاوت الطبقي بين المتخومين والمحرومين، والأغنياء والفقراء في النظام الاجتماعي أو من خلال استقطابات اجتماعية أو دينية أو عرقية أو جهوية أو غيرها، بما فيها وجود قوانين وتشريعات غير عادلة لا تحقق المساواة والتكافؤ في الفرص، وسيادة قيم سلبية مثل عدم التسامح والاستعلاء، والخوف من الاستخدام السلبى للتباين في علاقات القوة وفرض الهيمنة والاستتباع في إطار ازدواجية في المعايير.

وحيث يكون العنف الأول ظاهراً، يكون العنف الثاني كامناً أو غير ظاهر، وهذا الأخير يعمل ببطء وتدرج، ويسهم في تآكل القيم الإنسانية، وقد يكون أكثر خبثاً من الأول.

وتحدد الاتجاهات والسياقات والسلوك، والعنف وتأثيراته السلبية وكذلك سبل مجابهته بالثقافة النقدية، فمثلما هناك سلوك سلبي (عنفى)، هناك سلوك إيجابي (لا عنفى)، سواء كان مرئياً أو غير مرئى، وأمثلته عديدة على السلوك السلبى وسياقاته: التمييز العنصرى وانكار حق تقرير المصير وازدواجية المعايير، أما اتجاهاته فتتمثل بالمشاعر والقيم، مثل الخوف، انعدام الثقة والكراهية وغيرها وعكسها تتمثل باتجاهات المانعف، التي ترفض التمييز وتدعو إلى مقاومته سلمياً وتعترف بحقوق الغير، خصوصاً إيمانها بالتسامح والمساواة بين البشر والمشارك الإنساني.

ويشمل العنف الثقافى، العنف المباشر وغير المباشر، إضافة إلى الأوجه الرمزية في الثقافة، المتمثلة بالأفكار وتعاليم الدين واللغة والفن وغيرها من العلوم الاقتصادية والتكنولوجية التي تُشرع العنف، ويرى غالتونغ وهو عالم نرويجي ومؤسس لمعهد بحوث السلام في أوسلو، إن القضاء على العنف المباشر يتم من خلال تغيير السلوك وانتهاء بالعنف غير المباشر "البنوي" لمعالجة التناقضات وانتهاء بالعنف الثقافى من خلال تغيير الاتجاهات، وكان قد انتقد البلدان الغربية في موقفها من البلدان النامية. وهناك عنف اقتصادى وسياسى وثقافى ونفسى وإعلامى وقانونى وجنسى وأسرى وتربوي محلي ودولي، وهناك عنف رمزى وتكنولوجى وعلمى وفنى بما فيه أفلام الأكلشن والألعاب الإلكترونية.



العنف وفريضة اللاعنف.. شذرات من تجربة شخصية

4-4

حصار العراق بزعم إسقاط نظامه سخرية لمن يحاول تسويغه أو التواطؤ معه

لقد درست نظرية اللاعنف، ولست بعيداً عن الخلوص إلى أنها تمثل حقيقة، خرجت أن يبشّر بها بالمثال، لكنها تستلزم عظمة لا لأصْف بها

البيير كامو

بيروت

عبد الحسين شعبان



لقد برز ستالين ملاحقة ضحاياها وقتل الملايين من البشر - الدفاع عن الاشتراكية ضد الأعداء والإمبرياليين والمواطنين معهم، وشنّ صدام حسين حروبه باسم الحقوق ويهدف منع التآمر على نظامه، ناهيك عن تصفية خصومه، سواء داخل حزبه أو خارجه... كل ذلك تحت مبرر مزايع امتلاك الحقيقة، والغايات الشريفة التي تبرر استخدام جميع الوسائل حتى وإن كانت غير عادلة، وباختصار إن ذلك يعني "الغاية تبرر الوسيلة" وهو المبدأ الميكافيللي الذي لا يقم وزناً للإنسان.

وكان كتاب "الأمير" للفيلسوف الإيطالي ميكافيللي قد صدر إبان عصر النهضة، وهو من الكتب التاريخية المهمة في علم السياسة، رغم مضي أكثر من 5 قرون على صدوره، وعلى افتراض وجود غايات عادلة، فهل يمكن استخدام وسائل غير عادلة لتحقيقها؟ هل يجوز ذلك أخلاقياً وفكرياً وقانونياً أم نمة اختلالات بنوية، لاسيما بين العنف والأخلاق؟ فالعنف يجعل القضية العادلة قضية غير عادلة ووسائل العنف تحط من شأن القضايا العادلة. ولكي نصل إلى الغاية العادلة يجب استخدام وسائل عادلة أيضاً، أي الانسجام والتناغم بين الغاية والوسيلة التي يتم السعي لتحقيقها.

وكنت دائماً ما اضرب مثلاً بخصوص الحصار المفروض على العراق بالقول: إن الزعم بمحاصرة العراق هو نظامه، إنما هو سخرية لمن يقوم بها ولن سوغها أو لن يحاول التواطؤ معها أو الاقتناع بها، وهو أقرب إلى استهداف طائرة ركاب تقل على متنها 380 راكباً، بحجة وجود إرهابي واحد عليها أو الشك بوجوده، أو متسلماً هو

تجفيف بحيرة كاملة وحرمان السكان من الماء بحجة وجود سمكة خبيثة فيها، ومثل هذا العنف الجماعي هو لا إنساني وهو ينطلق من تبرير الأسلوب الميكافيللي: الغاية تبرر الوسيلة، في حين إن الوسيلة جزء من الغاية، وإذا كانت الغاية غير معروفة فالموسم، فالوسيلة ملموسة، وبالتالي لا يمكن أن تكون وسيلة غير عادلة تتناف وتكافح من أجل قضية عادلة. والعلاقة بين الوسيلة والغاية حسب رأي غاندي، الذي كثيراً ما استشهدت به، هي علاقة عضوية متينة ومترابطة ولا انفصام بينهما، لأن الغاية كاملة في الوسيلة، وهي مثل "علاقة البذرة بالشجرة"، والعكس صحيح. وإذا كنا لا نستطيع التحدث بالغايات، لاسيما وهي بعيدة المدى لأنها تتعلق بالمستقبل، فإننا يمكن أن نسيطر على الوسائل، لأنها جزء من الحاضر، أي إن الغاية تعيش للمستقبل، أما الوسيلة فهي تعيش في الحاضر.

وقد حاول كارل ماركس ورفيقه إنجلز تبرير استخدام العنف باستمرار صراع الطبقات، وحين يزول هذا أو يحل لصالح انتصار الاشتراكية والشوعية، فسيؤول معه كل عنف، لاسيما بزوال الظلم وسيادة العدل، أي تبرير استخدام العنف بانتظار المستقبل، ويظل

ذلك مجرد وعد، لكن الحقيقة سارت باتجاه آخر، ويختلف اللأعنفيون عن مبرري العنف، إنهم لا يعدون أحداً بالمستقبل، وإنما وعدهم هو "الآن... الآن... الآن...". أي إن استعمال الوسيلة هو المقدمة الضرورية للنهاية.

والعنف يفرض نوعاً من التشابه، بل يجبر على مثل هذا التشابه أحياناً، وذلك يجعل مجموعات سكانية ثقافية دينية أو لغوية أو إثنية أو سلالية تتشابه فيما بينها، وذلك تحت زعم امتلاك الحقيقة وإدعاء الأفضليات، إضافة إلى عوامل أخرى، في حين إن أفرادها مختلفون. العنف وحده هو الذي يجبرهم على مثل هذا "التشابه" الإجباري الإرهابي، في حين إن اللأعنف هو خبير الاختلاف، وهكذا هم البشر مختلفون ومتباينون بحكم تلقائيتهم وغويبتهم وظروف نشأتهم وتكوينهم، إضافة إلى أوضاع حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ينافس صديقي الفرنسي فيلسوف اللأعنف جان ماري مولر فكرة البير كامو المتبسة عن فلسفة العنف والأعنف، تلك التي ترد مراراً في رواياته، لاسيما في حوادث القتل، فيقول إن بعض خصومه أخذوا عليه هروبه إلى مخالفة "الأعنف"، على الرغم من أنه لم يدعه قط، ويعرج على مقدمة

كتبتها جان بول سارتر على كتاب فرانتز فانون "معدبو الأرض" العام 1961 بخصوص عنف الشعوب المستعمرة، فيقدم نقداً

للأعنف يكون أيضاً بواسطة الاستغلال، لاسيما باستمرار التفاوت الطبقي بين المتخومين والمحرومين، والأغنياء والفقراء في النظام الاجتماعي أو من خلال

الاحتلال، لاسيما باستخدام التفاوت الطبقي بين المتخومين والمحرومين، والأغنياء والفقراء في النظام الاجتماعي أو من خلال

الاحتلال، لاسيما باستخدام التفاوت الطبقي بين المتخومين والمحرومين، والأغنياء والفقراء في النظام الاجتماعي أو من خلال

الاحتلال، لاسيما باستخدام التفاوت الطبقي بين المتخومين والمحرومين، والأغنياء والفقراء في النظام الاجتماعي أو من خلال

الاحتلال، لاسيما باستخدام التفاوت الطبقي بين المتخومين والمحرومين، والأغنياء والفقراء في النظام الاجتماعي أو من خلال

الاحتلال، لاسيما باستخدام التفاوت الطبقي بين المتخومين والمحرومين، والأغنياء والفقراء في النظام الاجتماعي أو من خلال

الاحتلال، لاسيما باستخدام التفاوت الطبقي بين المتخومين والمحرومين، والأغنياء والفقراء في النظام الاجتماعي أو من خلال

غلاف مجلة



جوزيف ستالين

وعانينا منها مثلما عانت منها شعوبنا وأوطاننا. وإن الأوان للبحث عن اللأعنف لدى كل منا، وفي ثرائنا وثقافتنا، لتعميمه وليصبح هو القاعدة وليس الاستثناء، حتى وإن كنا لا نستطيع أن نلغي العنف من حياتنا.

وإذا كان لكل منا صدمته من هذا، فصدفنا جان ماري مولر الفيلسوف الأشهر في العالم المعاصر وزميلنا في جامعة اللاعنف انتقل إلى فريضة اللاعنف، حين طلب منه أن يلتحق بالجيش الفرنسي وليقاتل الشعب الجزائري، المستعمر والحتل والذي ذاق مرارة العنف وطيلة قرن وأكثر من ثلاثة عقود من الزمان، فرفض وامتنع. وقضت هذا السنين على أن يخترط في مقاتلة شعب يتطلع لنيل حريته واستقلاله وحججه في تقرير مصيره، رافضاً كلياً للجوء إلى العنف.

كانت صدمة الجزائر نحو فلسفة اللاعنف، وقد كرس ذلك حياته منذ مطلع الستينات من القرن الماضي وحتى اليوم ويعتبر كتاب "نزع سلاح الآلهة" مرجعاً مهماً في فلسفة اللاعنف، لاسيما علاقة ذلك باليابان، وهو مع كتابه "تاموس اللأعنف" من الكتب التي لا بد من الاطلاع عليها لمن يريد التعرف على فلسفة اللاعنف، ويبقى لكل إنسان

صدمته من اللاعنف، سواء حدثت مرة واحدة أو جاءت على مراحل وديعات مثلما هي كانت بالنسبة لكاتب السطور.

□ نشرت في مجلة أفانك أدبية (فصلية) تعنى بالإبداع الجديد، العدد 3 و4/ 2017 واستنشر هذه السردية كاملة في كتاب يصدر في الغرب تكريماً للاستاذ الدكتور محمد المالكي مع مقدمة خاصة عنه.

□ كتابي مع مفكر عراقي،

إلى اللأعنف بعد أن قضى 27 عاماً في السجن. واستنسخ بدعوته الإنسانية تلك وإدارته لمفاوضات مع دي كليرك ونجاسه في انتخبات العام 1994 التي أصر أن تكون لكل الأعراق والأجناس والانحدارات أن ينهي نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا التي دام فيها أكثر من قرنين من الزمان حيث كانت تتحكم فيه "الأقلية البيضاء".

إن غساندي وكنج ومسانديلا لم يكونوا غربيين، كما إن زعاماتهم لم تكن منتجاً غريباً، فهم جزء من مجتمعات عانت من التمييز والأضطهاد وهم من استطاع قيادتها نحو تحقيق أهدافها بالوسائل اللاعنفية.

ما يشبه الخاتمة
إذا كنت قد توصلت إلى اللأعنف، وجئت إلى فضيلته على دفعات ومراحل، فإن فريضة لا تتكون هكذا مرة واحدة أيضاً. لقد جنتها من مواقع ومتابع مختلفة، بما فيها عنيفة أحياناً أو لم تشكل قطعة نهائية مع العنف أو لا تزال متذبذبة إزاءه، لكن الإتهاد إليه جاء بعد تجارب مريرة عشناها

وهناك عنف رمزى وتكنولوجى والكراهية وغيرها وعكسها تتمثل اتجاهات اللأعنف، التي ترفض التمييز وتدعو إلى مقاومته سلمياً وتعترف بحقوق الغير، خصوصاً إيمانها بالتسامح والمساواة بين البشر والمشارك الإنساني.

ويشمل العنف الثقافى، العنف المباشر وغير المباشر، إضافة إلى الأوجه الرمزية في الثقافة، المتمثلة بالأفكار وتعاليم الدين واللغة والفن وغيرها من العلوم الاقتصادية والتكنولوجية التي تُشرع العنف، ويرى غالتونغ وهو عالم نرويجي ومؤسس لمعهد بحوث السلام في أوسلو، إن القضاء على العنف المباشر يتم من خلال تغيير السلوك وانتهاء بالعنف غير المباشر "البنوي" لمعالجة التناقضات وانتهاء بالعنف الثقافى من خلال تغيير الاتجاهات، وكان قد انتقد البلدان الغربية في موقفها من البلدان النامية.

وهناك عنف اقتصادى وسياسى وثقافى ونفسى وإعلامى وقانونى وجنسى وأسرى وتربوي محلي ودولي، وهناك عنف رمزى وتكنولوجى وعلمى وفنى بما فيه أفلام الأكلشن والألعاب الإلكترونية.

كان كتاب "الأمير" للفيلسوف الإيطالي ميكافيللي قد صدر إبان عصر النهضة، وهو من الكتب التاريخية المهمة في علم السياسة، رغم مضي أكثر من 5 قرون على صدوره، وعلى افتراض وجود غايات عادلة، فهل يمكن استخدام وسائل غير عادلة لتحقيقها؟ هل يجوز ذلك أخلاقياً وفكرياً وقانونياً أم نمة اختلالات بنوية، لاسيما بين العنف والأخلاق؟ فالعنف يجعل القضية العادلة قضية غير عادلة ووسائل العنف تحط من شأن القضايا العادلة، ولكي نصل إلى الغاية العادلة يجب استخدام وسائل عادلة أيضاً، أي الانسجام والتناغم بين الغاية والوسيلة التي يتم السعي لتحقيقها.

وكنت دائماً ما اضرب مثلاً بخصوص الحصار المفروض على العراق بالقول: إن الزعم بمحاصرة العراق هو نظامه، إنما هو سخرية لمن يقوم بها ولن سوغها أو لن يحاول التواطؤ معها أو الاقتناع بها، وهو أقرب إلى استهداف طائرة ركاب تقل على متنها 380 راكباً، بحجة وجود إرهابي واحد عليها أو الشك بوجوده، أو متسلماً هو استهداف طائرة ركاب تقل على متنها 380 راكباً، بحجة وجود إرهابي واحد عليها أو الشك بوجوده، أو متسلماً هو

تجفيف بحيرة كاملة وحرمان السكان من الماء بحجة وجود سمكة خبيثة فيها، ومثل هذا العنف الجماعي هو لا إنساني وهو ينطلق من تبرير الأسلوب الميكافيللي: الغاية تبرر الوسيلة، في حين إن الوسيلة جزء من الغاية، وإذا كانت الغاية غير معروفة فالموسم، فالوسيلة ملموسة، وبالتالي لا يمكن أن تكون وسيلة غير عادلة تتناف وتكافح من أجل قضية عادلة.

والعلاقة بين الوسيلة والغاية حسب رأي غاندي، الذي كثيراً ما استشهدت به، هي علاقة عضوية متينة ومترابطة ولا انفصام بينهما، لأن الغاية كاملة في الوسيلة، وهي مثل "علاقة البذرة بالشجرة"، والعكس صحيح. وإذا كنا لا نستطيع التحكم بالغايات، لاسيما هي بعيدة المدى لأنها تتعلق بالمستقبل، فإننا يمكن أن نسيطر على الوسائل، لأنها جزء من الحاضر، أي إن الغاية تعيش للمستقبل، أما الوسيلة فهي تعيش في الحاضر.